رواية البوليس السري

مقدمة المعرّب

قرأت هذه القصة في اللغة الانكليزية واسمها " Bella-Demonia " اي " الشيطانة الظريفة " للكاتبة الشهيرة سلينا دولارو فاعجبني حسنُ اسلوبها وغرابة حوادثها وقد مُثِّلت وقائعها في بطرس برج وفينا ولندن والبلقان وغيرها من مدن اوربا قبيل شبوب الحرب الاخيرة بين روسيا وتركيا والغرض من وضعها اظهار دهاء البوليس السري وقوة النيهيلست في روسيا على وجهٍ فكاهي تاريخيّ يروق القارئ ويشوق المطالع . وقد عرّبتها راجيًا ان تكون خير تسليةٍ لقراء المقتطف في اوقات الفراغ

اسعد داغر

الفصل الاول

جون فاين

— ولكن لا يخفى على جنابك ان الاجرة ثلثة ريالات

— اذهب عني سريعًا

— ولكن —

— ماذا ألا تزال تعوي دونك هذه الاجرة

ثم دوى الشارع بصراخٍ شديد أصعدهُ سائق مركبةٍ من جراء ضربةٍ ابتدرهُ بها على وجههِ رجلٌ كان راكبًا معهُ وقد نزل في رأس شارع نيوسكي

وكان هذا السائق من عامة الروس المدعوين فلاحين (موجك) وعليهِ جبةٌ بالية من الفرو فوقف مستندًا الى جانب مركبتهِ وقد لاح لعين الناظر فرقٌ عظيم بينهُ وبين ضاربهِ الذي كان منتصبًا امام مصباحٍ فبدا على نورهِ قائمًا في زيٍّ عسكري ومرتديًا حلةً فاخرة من جوخٍ فاتمٍ يغشاها فروٌ فاخرٌ جميل ولابسًا قبعةً وقفازين من نسيج الحلة عينهِ ومحتذيًا حذاءً دلَّت بساطة صنعهِ ومتانتهُ على انهُ من المصنوعات الانكليزية . وكان شعر رأسهِ المخفي تحت

قبعتهِ اسود اللون وكذا شعر شاربيهِ الاثيث الخشن المُسبل من طرفيهِ على انتظامٍ تام يُواري تحتهُ فمًا كالحًا يبسم عن منتهى الشراسة والقساوة

وقف هذا الرجل ينظر الى ذلك السائق المتألم ويدهُ الواحدة موصلة على فخذهِ والأخرى قابضة خيزرانة لا تنفكُّ تنهزُّ بقوة الضربة التي نابت هذا الفلاح المسكين

اما ضربُ الراكب للسائق فلم يكن امرًا ذا بال ولا شيئًا يستحقُّ الملاحظة ولا سيما في وقت حدوث هذه الحادثة . وكان في بركود الهواء في ذلك الزمهرير القارس يردد شكرى ذلك المضروب البائس ويرجّع صدى مرارة صراخهِ . على انهُ اتفق لذلك الصوت ان بلغ مسمع رجلٍ كان قائمًا في بوابةٍ على ذلك الشارع فخرج على الاثر وخفَّ الى حيث كان السائق واقفًا يتظلم من ضاربهِ الجائر العاتي وخاطبهُ بلسان الآمر الناهي : —

— ما شأنك ايها الرجل هلمَّ اخبرني . فالناس لا يُجلَدون عبثًا في شوارع بطرس برج .

فلما سمع الضارب كلامهُ عبس في وجههِ راشاح عنهُ معترضًا من فضولهِ . فتأثر السائل من استيائهِ لكنهُ ما لبث ان حيَّاهُ التحية العسكرية وخاطبهُ بلحنٍ شفَّ عن مزيد تعجبهِ واستغرابهِ :

— من ارى ؟ جوسبودار فاين ؟ أرانا في غاية المحافظة على الوقت حتى اننا لم نخلف شيئًا من الميعاد

اما السائق فبعد ما حملق في وجهِ هذا المتكلم وثب باسرع من وميض البرق الى مقعدهِ في المركبة واسرَّ الى نفسهِ بصوتٍ متقطع : —

— ديمتري كيراتيف ! رئيس البوليس السري ! يا قديسة كاترينا ! الهرب الهرب !

وقبلما تمكن ذانك الرجلان من النظر اليهِ كان قد اكمل السوط في ظهر جوادهِ وقام يُمعن في الركض وينهب بالمركبة الارض وفي اقل من بضع ثوانٍ توارى عن العيان . فقال فاين : —

— نعم انَّ ما اسعى في الحصول عليهِ امرٌ خطير يتطلَّبُ مني افتداء الوقت والحضور في الميعاد ومنك اسراعًا مع تأنٍّ واستعداد . ولستَ في حاجةٍ الى الاهتمام بهذا السائق فقد مضى وقضي الامر بعدما تعلَّم درسًا مفيدًا لا ينساهُ ابد الدهر . حاول الخبيث ان يأخذ الاجرة مضاعفةً وقد خفيت عليهِ معرفتي فاخطأ سهمهُ الغرض . وعُوِّض منها احسن عوض

قال هذا واوغل في ضحكٍ ناشفٍ فصل شفتيهِ احداهما عن الاخرى واسفر عن فكَّين علقت بهما اسنانٌ دقيقة مشجوذة على سنَّ القسوة . ثم سألهُ كيراتيف : —

— وهل جئتَ بالكتاب ؟

— نعم هذا هو

واخرج من قمطره قرطاسًا مطويًا وقال : —

— حسبنا هذا فهو فوق ما نطلب . انهُ كتاب من الكس دورسكي زعيم النيهيلست الى البرنس لاديسلاز غالتزن ومنهُ يتضح لكِ ما هما عليهِ هذان الرجلان من التحالف الوثيق العرى والصداقة الموطدة الاركان

فاجابهُ رئيس البوليس : —

— نعم هذا اكثر من حاجتنا ثم اشعل مصباحًا اخرجهُ من جيبهِ واخذ يطالع الكتاب على نورهِ بمزيد الامعان . ولما فرغ من تلاوتهِ اطفأ المصباح وطوى الكتاب ووضعهُ في قمطره وقال لفاين : —

— كيف سمح البرنس لاديسلاز بوقوع هذا الكتاب في ايدينا ؟

— استودعهُ شقيقتهُ البرنسس كاريتا غالتزن ومنها تهيأ لي الحصول عليهِ

فرمى رئيس البوليس بنظرهِ الحادّ السريع وجه فاين الذي ابدى التجاهل التامّ من مرادهِ ورماهُ بنظرةٍ مثلها ثم سألهُ بلهجةٍ دلّت على ارتيابهِ : —

— متى تروم ان يُقبض عليهِ ؟

— على الفور على الفور . ينبغي ان لا تمرّ ساعة واحدة حتى يكون مودعًا قلعة مار بطرس وبولس :

— أفي سرعةٍ كهذه ؟

— نعم كي لا يعود يتمكّن من تمثيل " دورٍ " آخر مثل الذي بعثهُ الطيش والوعونة على تمثيلهِ هذا المساء في النادي

— ولكن يجب ان لا يخرج البتة من القلعة وينبغي ان لا يُحاكَم هناك

فاجابهُ رئيس البوليس باسمًا : —

— لا تخف . فانهُ قلما يحاكَم المسجونون الذين يزجّون في غيابة قلعة القديسين بطرس وبولس حيث رفعت الرطوبة قبابها . وضربت العفونة اطنابها . ورسخت اقدام الهواء الفاسد وسوخ النقش في الحجر . وخيم الموت بظلالهِ فلم يغادر لعين حياة المسجونين من اثر . ولستُ محتاجًا ان اذكرك نعومة جسم البرنس وعدم استطاعتهِ الحياة في ذلك المكان المقطعة عنهُ منافذ الحياة . واظنك لا تبخل علينا بالمساعدة عندما تحضرهُ الوفاة . لان الاحتفال بدفن سجين كهذا ممّا يرتاح كل غريب مثلك اليهِ . ويود التفرّج عليهِ

فسألهُ فاين متظاهرًا بعدم الانتباه الى كلامهِ السابق : —

وهل انتَ واثقٌ من امكان القبض عليهِ في الحال ؟

فاعاد عليهِ جوابهُ المتقدم : —

— لا تمرُّ ساعة حتى يكون مودعاً القلعة بحرص

— اين هو الآن فقد خرج من النادي مسرعاً جداً

— عند امرأتهِ

— ماذا تقول

— عند امرأتهِ لانهُ قد تزوج منذ اكثر من سنةٍ بسريةٍ

— ما سمعت بهذا قط

— لم يسمع بهِ احدٌ غير ديتري كيرانيف وشقيقة البرنس الاميرة كاريتا

— ما شاء الله

— واذا شئت تغيير فكرك فلك نصف ساعة من الوقت وهذا كاف للافتكار

— تغيير فكري ؟ لستُ بعادل عن عزمي الى الابد ولا شيءَ افضل من الانتقام فالثأر الثأر وقد سنحت فرصتهُ

وفيما هو عازم على الانطلاق قبض رئيس البوليس على ذراعهِ وخاطبهُ باهتمام قائلاً اعلم ان انتقاماً كهذا سوف يكون هائلاً الى الغاية . وهذه الضربة لا بدَّ انها تنتاب معهُ شقيقتهُ وقرينتهُ

— حسن في احسن

— ويرجح انها تقضي على هاتين المرأتين

فلم يجبهُ فاين بشيءٍ بل عضَّ على طرف سيكارهِ وقدح عود كبريت ليشعلهُ بهِ فلما ادنى النار من وجههِ لاحت بنورها عيناهُ المتقدتان بشعلة المكر وهما محدقتان الى رئيس البوليس وبعدما تبسم تبسماً ذهب بانتظام وجههِ وشرح متن الشراسة التي انطوى عليها صدرهُ رمى بعود الكبريت الى الارض واعرض عن رفيقهِ بلا كلام منسلاً تحت اطباق الظلام . فقال كيرانيف بنفسهِ وهو يشيّع فاين بنظرهِ : —

— يا لهُ من شيطانٍ لبطانٍ على انهُ مهما يكن من خبثهِ فهو عضو ثمين في جسم فرقتنا الثالثة

ثم اهاب بسائق مركبة كان يخطر بمركبتهِ امامهُ فوثب اليها وطفقت تجري بهِ الى مركز رئيس البوليس العام

الفصل الثاني

الزوجان

لا يعزب عن ذهن المطالع ان اجمل المساكن وابهى المنازل في بطرس برج هو كما في غيرها من امهات مدن العالم قائم على نهر . فكما تظهر قصور اللوفر على السين في باريس مقابل اخصاص شارع اللاتين — وكما تبدو صروح مجلس النواب وقصر مترست على التيمس في لندن تجاه اكواخ لونشور هكذا تلوح قلعة الشتاء على نهر نيفا في بطرس برج مقابل منازل الفلاحين (الموجك) الحقيرة

ففي هذه المنازل الوضيعة تولدت النيهيلستية وترعرعت وتنشت وعليها تُرسل الحكومة العيون والارصاد بواسطة البوليس السري وفيها يجد من يروم المواراة عن الانظار مخابئ لا يراها بين الغابات والادغال

فاذا سرت في احد شوارعها الضيقة انتهى بك الى بابٍ واطيء يفتح الى مدخلٍ حرج يؤدي الى كوخٍ اشبه بزريبةٍ وهناك مهما اطلت القرع على بابهِ لا تسمع صوت مجيب ولا تؤانس شيئاً من العلامات الدالة على كونهِ مأهولاً الاَّ اذا مسستهُ بعصاً او حجر فانك في الحال تجاب من الداخل بكلمة تسرُّ اليك فإن كنت مطلعاً على كنه الاصطلاح الموضوع لهذه الغاية اجبت المتكلم بكلمة اخرى لا يلبث الباب عندها ان ينفتح

ولا تطأ رجلاك داخلهُ حتى تشعر تحت قدميك بالفرو المفروشة بهِ الارض ثم تجتاز المدخل الى غرفةٍ مفروشة بجلودٍ من سيبيريا وجدرانها مغشاة بمنسوجات حريرية من اصفهان ومطرَّزات من دمشق وباقي رياشها من اثمن العاديات والآثار الهندية والصينية وابدع المصنوعات الاوربية بين مطرزٍ ومرصعٍ وموشى مما يطول شرحهُ ويعزُّ استيفاؤهُ

وفي تلك الغرفة امرأة جالسة على متكأٍ وعلى محياها لوائح الانتظار . وهي البرنس نادين غالتزن التي كانت قبلاً آمة البرنس كاريتا والآن اصبحت زوجة البرنس لاديسلاز . ولا ريب في ان هذا الامير الروسي قد اتى ما يستوجب اللوم وسقوط الشأن باقترانهِ اقتراناً غير شرعي بمن هي دونهُ في الرتبة والمقام ولكن كل من ينظر الى زوجتهِ متكئة على سريرها يجد آثار الرفعة على جبينها ودم الكرامة ساريًا في عروقها ويرى انها اهلٌ لان تقاسم البرنس غالتزن شرف لقبهِ ومجد أسرتهِ

وبينما هي تنتظر قدوم زوجها بصبرٍ ذاهبٍ وجزعٍ غالبٍ طفقت افكارها تجول في جوّ

السنتين الغابرتين تخيل لها انها عادت الى نعيمها الخالي وخفضة عيشها السابقة وعادت ايام الصفاء تفترّ عن ثغورٍ بالمسرات بواسم . وجوُّ الهناء مجلوٌّ برياحٍ بالافراح نواسم والسعادة محدقة بها جاعلة اياماً كلها اعياداً ومواسم . ايام كانت قائمة بخدمة الاميرة كاريتا وهي عندها كاخت شقيقة لا كامة رقيقة

ثم لاح لعينيها البرنس لاديسلاز راجعاً من المدرسة الكلية فتنّى غض الاهاب في ريعان الصبا وعنفوان الشباب . واسترجعت لها ذاكرتها صوت استيقاظها لصوتٍ جديد كان يناجيها من نحوٍ ومثلت لعينيها صورة تدرجها في الافتتاع بانهُ كان في زمن احلامها وقبلة وجدها وهيامها . واخطرت على قلبها ذكر اول وقت وقعت عيناها على عينيهِ . وقاصمتهُ بالنظر شرح غرام يعجزُ البليغ وصفهُ ولا يقوى الكلام عليهِ

وتذكّرت نجاحها بعد ذلك في عقد الخطبة من غير علم ابي الامير لاديسلاز وما ألمّ بها من الكدر حين بلغها انهُ حان وقت انطلاق خطيبها لمباشرة خدمتهِ في فرقة حرس القيصر وكيف انهُ اقنع قيصر كاهن القصر اذ ذاك بان يعتد قرانهما سرًّا ثم هربا الى بطرس برج حيث قضيا السنة الاولى متجاذبين اطراف السرور والهناء واخذين باسبلب الرغد والصفاء. ولعلَّ أبين يوم عندها من تلك السنة السعيدة كان يوم زارتها الاميرة كاريتا في مخبإها واعتنقتها داعية اياها باحلى اسم — يا أختي . اما خفاء امر اقترانهما فكان مهمًّا جدًّا لان الامير لاديسلاز غالتزن الفرع الوحيد لدوحةٍ عريقة بالمجد والشرف طائرة الصيت بالوجاهة ورفعة الشأن في اطراف المملكة كان قد اتُّهم في عهد طيشهِ وهو في المدرسة بالنزوع الى المبادىء الحرَّة وكان في عزم القيصر ان يزوّجهُ ابنة اقدم بيوت حزب المحافظين في روسيا وهذا كان الباعث على وجوده في الحرس القيصري واخفاء خبر اقترانهِ الذي لم يكن احدٌ عالمًا بهِ سوى اختهِ وشخص آخر هو ديمتري كيراتيف رئيس الفرقة الثالثة — (البوليس السري) — التي تجدها في روسيا الى اليوم هولاً على البلاد ورعباً في قلوب العباد . على ان ديمتري كيراتيف كان مديونًا بجميل عظيم لبيت غالتزن فكان شديد الحرص على هذا السر الخطير حتى جدث ما جعلهُ يعدُّ كتمانهُ ذنبًا لا يغتفر . وجريمةً ضد وليّ نعمتهِ القيصر

قلنا ان نادين كانت جالسة في احدى غرف مخبإها وهي قلقة لغياب زوجها وريحانها وموجسةً خوفًا من ان تُلِمَّ بهِ مصيبةٌ لم تكن في حسبانها . فبينما هي في هذه الحالة سمعت وقع خطواتهِ قادمًا في الدار وما لبث ان دخل قائلاً : —

— هانذا يا حبيبتي نادين

ثم عطف عليها مطمئنًا ببرد نقيلة لما نار هواجسها وجاليًا برقة حديثه صدأ بلبالها فزال خوفها وسكن روعها وامنت شرّ مغتال يغافل حبيبها في غيابه عنها اذ رأته حالًا بجانبها في راحة وامان لا خوف عليهما ولا هما يحزنان . فرفعت نظرها اليه وقالت :

— اراني في غنى عن وصف خوفي عليك فاعلم ان كل ساعة لا اراك فيها انقلب على مجامر الاضطراب خوفًا ان يوقعوا بك ولعلهم يجدون في عصيانك اوامر القيصر سببًا كافيًا للقبض عليك . فاحترس — آه رحماك احترس ياحبيبي والاّ فاقل شيء يصيبك يجرعني غصص الموت معك ان لم اقل قبلك

فاجابها : تشجعي يا حبيبتي تشجعي اذ ليس ما يوجب الحذر ولا ارى من خوف علينا ولا خطر ما داموا غير قادرين ان يقفوا لنا على اثر . ولست بجاهل شقاء حالك ان تمكنوا من الاطلاع على حقيقة امرنا وهتكوا حجاب سرّنا ولكن دعينا من هذا الحديث الذي لا يفيد واعلمي انهُ سيطرقنا عما قليل زائرٌ جديد

زائر ؟

قالت هذا وقد انقدت عيناها بنار الخوف والوجل

— نعم فلطالما سمعتني اذكر امامك الكس الكسندروفتش

— مرادك الكس دورسكي النيهيلستي ؟

— نعم هو هو خدني الصفي القديم ورفيق عهد المدرسة الوفي الحميم وهو آتٍ هذه الليلة الى بطرس برج ولكن سرًّا حتى عن العتبة التي هو متداسها وزعيمها

— آه يالاديسلاز ما اقل دربتك ودرايتك !

— استُ في شيء مما تدعين لاني على يقين تام انهُ ليس في مجيئه اقلّ داعٍ الى الخوف والارتياب ومن المستحيل ان ينتاب الكس دورسكي مكروه يروعنا فكوني براحة بال من هذا القبيل

وفيما هو يتكلم دخل خادمها الشيخ الموكولة اليه وحده حراسة الاميرة نادين وقال للامير :

— هوذا رجل طاعنٌ في السن يعرف شعار الدخول ويروم ان يرى سموك

— اليّ به

وبعد نحو دقيقة رُفعت الستائر فاجتاز من ورائها الى الداخل شيخ يحمل على ظهره خرجًا وبعد دخوله وخروج الخادم قام منتصبًا وخلع عنهُ اسمال التكرور نزع لحيتهُ العارية ووقف امام الاميرين بهيئة جبار عنيد يفل عزمهُ الحديد

— الكس الكسندروفتش !
— لاديسلاز لاديسلافتش !
ثم تعانقا عناق اهل الاشواق وتشاكيا ألم النوى والفراق

الفصل الثالث

القاء القبض

وبعد ما فرغا من مطارحة السلام التفت البرنس لاديسلاز الى زوجته وقال لها وهو لا يزال آخذاً بيد صديقه : —

— هوذا يا سيدتي صديقي القديم الكس الكسندروفتش دورسكي

اما هي فبعد ما تغلّبت على روعها رفعت نظرها الى وجه الزائر وقالت : —

— سمعت عنك كثيراً يا الكس الكسندروفتش من قريبي لاديسلاز فاهلاً بك خير قادم الى مخبإنا هذا

فاجابها : —

— لا ريب في انكِ خفتِ ايتها الاميرة من زيارتي هذه ولكن صدقيني ان خوفك في غير محله ولستُ ما جيتُ بفاعل امراً يعود على قرينك بمكروه ولاجل هذه الغاية تريني زرتكما هذه الليلة متنكراً

— ارجو ان يكون الامر كما ذكرت

ثم سأله لاديسلاز : —

كيف الاحوال

— على غاية ما يرام هنا وفي الخارج . فان لنا اصدقاء كثيرين في الدوائر العليا حتى في فرقة الحرس القيصري كما في كل من فرق البوليس الثلث . وبعد بضع سنين — ولعلهُ بعد اشهر قليلة تصبحُ روسيا حرةً مختارةً . وما فعلهُ لاجلنا اسكندر الثاني سوف يفعلهُ ايضاً ويزيد عليهِ اصلاحاتٍ تمزّق من عنق روسيا اغلال الاستعباد والاستبداد وتنيلها غاية المشتهى ونهاية المراد . والاَّ —

وهنا انقطع عن الكلام انقطاعاً ادرك لاديسلاز معناهُ لكنَّ زوجتهُ التفتت اليهِ التفاتة الخوف فقال لها : —

لا تخافي يا عزيزتي فلست بمؤتمر ولا ساعٍ بكيدة وما انا والكيد سوى صديقين حميمين . لا تظني اني احد قوّادي فوحقّ القديسة كاترينا لستُ بمقدم على اقلّ شيء يُعرّض حياتي للخطر . ولذا تريني مسالمًا الجميع من عظمة القيصر الى اصغر الناس ولستُ بعد في شيء من المبادئ النيهيلستية بل قد اقلعتُ عن هذه الامیال وغادرتها في المدرسة الكلية . واذا كانت تلك الجمعية السرية التي كنت قبلاً احد اعضائها لا تنفك عاملةً على تنفيذ مبادئها فانا براء من تبعة ذلك كله

ثم ختم كلامهُ بقهقهة واتكأ بجانب زوجته فقال دورسكي : —

— لا ريب في ذلك وهو حسبنا فلا حاجة الى الزيادة . وانظرا فقد جئتكما بهدية

قال هذا واخرج من جيبه غلافًا من جلد وفتحهُ فاذا فيه رسمٌ ضمن إطار (برواز) مرصّع بالاوبال (حجر كريم) فقدمهُ الى الاميرة وقال : —

— هذه مني هدية قرانك السعيد فتفضّلي بقبولها واعلمها تذكرك من هو مستعدٌ على الدوام ان يبذل حريتهُ بل يضحي حياتهُ اذا مست الضرورة في سبيل الذود عن قرينك

— اشكر لك من صميم فؤادي هذه الهدية التي اقدرها قدرها ولكن قل لي بربك لماذا جعلتهم يرصّعون اطار الرسم بهذا النوع من الحجارة الكريمة . اني اتشاءم به كثيرًا ولذا اخشى الآن ان تعرونا نكبة او نصاب بادّى مفاجئ . اقول هذا وارجو ان تصفح عمّا تراهُ فيّ من الاستسلام الى الخرافات والاعتقاد بصحة مزاعم العامّة

فقال زوجها : — خلّي عنك الباطل فوحقّ جميع القديسين ان هذا الرسم جميل الى الغاية وسيذخر عندنا كاثمن كنز

وبينما كان الثلثة ينظرون الى الرسم معجبين بما في إطاره من الاتقان والاحكام اعترض سكوتهم ثلث قرعات عنيفة على الباب الخارجي وصوت صارخ في هدوء الليل : —

— افتح باسم جلالة القيصر :

ففشيتهم صفرة الوجل واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض . ثم خفّ لاديسلاز الى وضع الرسم في جيبه وصاح دورسكي : —

— وحق السماء لقد برح الخفاء . ولكن لا يمكن ذلك . فحضوري في هذا المكان لم تحلم به نفس انسان ولا خطر على بال انس ولا جان . لا بأس . خبئني . أخفني عن النظر

فاسرع لاديسلاز الى إطار احدى الصور الكبيرة المعلّقة وادار لولبًا فيه فانفتحت الصورة عن فراغ واسع وراءها في الحائط واسرّ الى دورسكي قائلاً : —

— هنا ! الى هنا ! بالعجل ! لا تبدِ حراكاً

وما ابطأ دورسكي ان جمع اليهِ خرجهُ وثياب التنكر التي دخل فيها وانسل الى مخبإهِ وقال لصديقهِ : —

— اياك ان تنبه الافكار الى وجودي هنا بكلمةٍ او نظرةٍ فاني لا أُؤاخذ من هذا المكان حيّاً

ثم اغلق لاديسلاز الصورة ورجع الى متكإهِ بجانب امرأتهِ التي أُغمي عليها من شدة الخوف واذ ذاك أُعيد القرع على الباب الخارجي وتكرَّر الطلب : —

— افتح باسم جلالة القيصر :

فاجاب الامير بصوتٍ عالٍ يكفي لاسماع من هم خارجاً : —

— افتح الباب : فليس من باعث يدعو سكان هذا البيت الى الخوف من حرس ابينا القيصر

ثم ارتفع صوت وقع الخطى وصليل الاسلحة في الرواق ودخل ديمتري كيراتيف فسأَلهُ الامير بلهجة العظمة : —

— ما المراد بهذا ؟ انظر كيف اخفت .... سرّيتي حتى كاد يُقضى عليها من شدة الرعب . وما من مأوى عندنا لاهل الشبهات

— ان غرضي مع سموكم !

— معي انا ؟ وما هو ؟

— اني مأمورٌ بالقبض عليك لسبب خيانةٍ ضد اقنوم جلالتهِ المقدَّس

— خيانة ؟ مني انا ؟ وما هي هذه الخيانة ؟

— خيانة صداقة الكسس دورسكي الثائر !

فجرت هذه الكلمات في مسمع الاميرة الذاهبة فريسة الاغماء نظير مجرّى كهربائيّ نبَّه إدراكها واعاد لها رشادها فصاحت : —

— ليس هو هنا ليس هو هنا !

فاجابها رئيس البوليس : —

— نعم ليس هو عندكم وادارة البوليس مطلعة على حركاتهِ وتعلم اين هو الآن ولكنَّ الامير مشكوٌّ بكتابٍ جاءهُ من دورسكي وهو الآن في ادارة البوليس

فسأَلهُ الامير : —

— كيف امكن —

فاعترضهُ رئيس البوليس : —

— لسنا الآن في معرض التحقيق وعلى سموك ان تنبعني في الحال اني مستعد لذلك

وهمّ ان يتبعهُ لولا انهُ خطر ببالهِ رسم دورسكي الذي في جيبهِ فمدّ يدهُ الى حيث الرسم باسرع من نشب السهم لكنّ عين رئيس البوليس الحادّة كانت تتأثر كل حركاتهِ فلما رآهُ يمدُّ يدهُ خالهُ يحاول اخراج آلة حادّةٍ يستعين بها على الدفاع عن نفسهِ فهجم عليهِ ونادى الجند الواقف خارجًا فلبّاهُ اثنان وانقضّا على الامير وشدّاهُ وثاقهُ ثم دنا رئيس البوليس منهُ ومدّ يدهُ الى جيبهِ فأخرج الصورة وصاح : —

— ما حاجتنا بعد الى شهود . يكفينا ان الامير حاملٌ رسم ذلك الخائن فهلمّ بنا

فاجابهُ الامير : —

— دع رجالك يذهبون يا كيراتيف فانّ لي شيئًا اقولهُ لك

فامرهم كيراتيف بالانصراف ولما خرجوا سألهُ الامير : —

— الى اين قضي عليّ بالذهاب ؟

— الى قلعة شلسبرج

فراع الامير هذا الخبر لكنهُ تغلب على روعهِ فأخفاهُ وقال متجلدًا : —

— يا كيراتيف كلانا يعلم ما وراء الذهاب الى هذه القلعة . وهذه السيدة امرأتي فدعني اكلمها خمس دقائق فقط وما اظنك تبخل عليّ بهذا الامر واعدك بشرفي اني انتظرك دنا

فاجابهُ رئيس البوليس متأثرًا

— ليكن لك ما طلبت فها انا ذاهب وبعد خمس دقائق اعود

ولما خرج دنا الامير من زوجتهِ وقال لها : —

— نادين حبيبتي نادين انظري . لا بأس مما حدث فانهم لم يقفوا على خبر وجودهِ هنا . وبعد خروجي من هنا ساعديهِ على النجاة واخبريهِ بان القبض عليّ حدث بدسيسة جون فاين لاني اهنتهُ هذا المساء في النادي . فان اصابني اذًى فقولي لهُ ان ينتقم لي ولكِ واطلبي اختي كاريتا فانها تعتني بك مدة سجني . تشجعي ولا تخافي

واخذ يحاول تعزيتها وقد نسيَ ان الخمس دقائق في مثل هذه الحالة تمرُّ اسرع من ثانية فرفع نظرهُ واذا بكيراتيف واقف بالباب فنهض وخرج معهُ

ولما خرجا الى الشارع صعد بهِ رئيس البوليس الى مركبة كانت تنتظرهُ وامر سائقها فسارت ووراءها فارسان يتبعانها وبعد ساعةٍ بلغت بهما قلعة شلسبرج

الفصل الرابع

زعيم نيهلست

اما الكسس دورمكي فبعد ما تحقق ذهاب رئيس البوليس فتح اطار الصورة وخرج ثم دنا من السرير الذي كانت الاميرة مطروحة عليهِ بلا حراكٍ فجثا بجانبهِ وقال لها : —

— اتوسل اليكِ ايتها الاميرة ان تسمعي كلامي فان الليل اخذ يتناهى وصرت مضطرًّا ان اذهب فانهضي وارعيني سمعك

فحاولت الاميرة الجلوس بكل صعوبة ولما وقعت عيناها على عيني ذلك النيهلستي اشاحت عنهُ مذعورة وصرخت : —

— اليك عني دعني وشأني لا استطيع ان اراك لانك كنت سبب القبض عليهِ

— كلاَّ ايتها الاميرة لم يقبض عليهِ بسببي بل بمكيدة كيدت لهُ هذه الليلة . واني أُقسم لكِ بقدس القديسين وبالحرية التي وقفتُ نفسي على الذود عن حرمتها والدفاع عن ذمارها لأَثأرنَّ لزوجك ثأرًا ترتعد لهولهِ فرائص الانس والجان وانتقمنَّ لهُ انتقامًا لم تسمع بهِ اذنٌ ولا خطر على بال انسان

— نعم نعم فقد اوصاني ان أُخبرك بان الذي نصب لهُ هذه المكيدة رجل انكليزي يدعى جون فاين فاحلف لي نشدتك الله احلف لي انك اذا قتلوا لادسلاز تطالب بدمهِ

— اقسم لكِ اني انقطع للانتقام منهُ الى آخر نسمةٍ من حياتي

— شكرًا لك — شكرًا . ولكن آه أَيُّ المٍ —

ثم ارتج عليها فوارت وجهها بين يديها وعادت الى ما كانت عليهِ قبلما اقترب الكسس اليها فوقف يفكر في امرها وقلبهُ يكاد ينفطر حزنًا على شقاء حالها . ثم حدثتهُ نفسهُ بوجوب السعي في انقاذ صديقهِ ان ابقوهُ حيًّا الى الصباح فسألها : —

— قولي لي اما من صديقةٍ لكِ فادعوها اليكِ ؟

فاجابتهُ بانفاسٍ يقطعها التنهد والانين : —

— بلى كاريتا

فنهض ولبس ثياب التنكر وخرج يهيم تحت ذيول الليل

وبعد ساعةٍ أُوقظ حارس قصر غالتزن بقرعٍ على الباب فخاطب الطارق بلسان الغيظ والحنق : —

— صعقتك الصاعقة . فماذا تريد في مثل هذا الوقت ؟

— باسم جلالة القيصر وامر البوليس السري ارفع كتاباً الى سمو الاميرة كاريتا الكسدروفنا .
فهرول الحارس الى فتح الباب واذا الشيخ يحمل خرجاً وقف امامهُ وقال لهُ : —
— سلم هذه الرسالة الى احدى اماء الاميرة في الحال . ينبغي ان تبلغها على الفور أفهمت ؟
فاجابهُ الحارس صاغراً وقد ظنهُ احد البوليس السري متنكراً : —
— امرك يا صاحب السمو
وبعد نحو ساعة قامت مركبة الاميرة كاريتا غالتزن تنهب الارض عادية بها الى جهة نهر نيفا وكان ذلك قبل طلوع النهار بثلث ساعات . اما الشيخ فبعدما ادّى الرسالة قفل راجعاً وعطف نحو ساحة القديسة كاترينا حيث كانت اربع مركبات واقفة تنتظر ركّابها ولمّا اجتاز سائقيها الذين كانوا مجتمعين عند باب للتدخين وضع احدى يديهِ على منخرهِ وادلى اصابعها ورفع الثانية الى أُذنهِ وفاء بالتحية المعتادة فاجابهُ احدهم بما معناهُ "جيد" وظلّ الشيخ سائراً في طريقهِ واسرع السائق الذي اجابهُ على تحيتهِ الى مركبتهِ وجرى بها يتأثرهُ فاجتازهُ عند مصباحٍ فأعاد عليهِ الشيخ الاشارة التي ابتدأ بها اولاً فدنا منهُ بمركبتهِ قليلاً فقال لهُ الشيخ : —
— ما اجملها ليلةً
— ما انقى الهواء
— ان الهواء رومي
— يجب ان يستنشقهُ الناس
ثم نطق الشيخ بهذه الكلمة "خورسكو" فزاد السائق اقتراباً منهُ حتى التصق بهِ فصعد الشيخ الى المركبة وسارت بهِ حتى بلغت منعطفاً في الطريق فاشار الشيخ الى السائق بالوقوف فامتثل وخرج الشيخ من المركبة ودنا من السائق واراهُ اطاراً صغيراً من ذهب منقوشاً عليهِ صليب احمر فهمس السائق : —
— يا مار نيقولا ! هذا الرئيس !
ثم انحنى امامهُ بمزيد الاكرام وخاطبهُ بكل احترام : —
— بماذا يأمر مولاي ؟
— ان احد سائقي مركبات الاجرة ذهب في هذا الليل بأسير الى احدى القلاع فعليك ان تأتي بهِ الساعة العاشرة صباحاً الى حيث أُعين لك في هذه الورقة
ثم رقم لهُ على قطعة ورق بضع كلمات تمكن السائق من تلاوتها جيداً على نور المصباح ومزّقها على الاثر وقال : —

— سآتي به الى مولاي في المكان المعهود والوقت المحدود

— حسن . سلام وحرية

— امين . حرية وسلام

وفي اليوم التالي جلس الكس دورسكي في الوقت المعين امام موقدة في غرفة من احد احياء بطرس برج القديمة وهو مضطرب البال مشتت الافكار ولما صارت الساعة العاشرة دخل السائق الذي لقيهُ امس في شارع نيوسكي يصحبهُ سائقٌ آخر وهو الذي كان موضوع كلامنا في اول هذه القصة . وبعد ما ألقى عليهِ دورسكي نظرة التفحص والانتقاد وعرض عليهِ بعض الرموز والاشارات وتحقق انهُ من اتباعهِ قال : —

— هل استخدمك البوليس امس ؟

— نعم يا صاحب السمو

— الى اية قمعة سرت بالاسير ؟

— الى قلعة شلسبرج

— هل تعلم شيئاً من امر القبض عليهِ ؟

— في اول المساء استأجرني رجل غريب فسرت بهِ الى اول شارع نيوسكي وهناك طلبت الاجرة فبادرني بضربةٍ من عصاهُ وهذا اثرها . ثم لقيهُ كيراتيف وبعد افتراقهما دعاني رئيس البوليس فذهبت بهِ الى مركز الادارة ثم الى نهر نيفا ثم سرت بالامير الى القلعة . آه مهلاً ايها الكلب الغريب فسوف انتقم منك !

— هل دعا كيراتيف ذلك الغريب باسمهِ ؟

— نعم يا صاحب السمو وهو — وهو — فان —

— جون فاين ؟

— نعم نعم هو بعينهِ

— يكفي . سلام وحرية

— امين . حرية وسلام

ثم انصرف السائقان وبقي دورسكي وحدهُ فقال : —

— والآن ياجون فاين . بقي ان الامر منحصر فيما بيني وبينك . فاحذر ان أُصيب لاديسلاز غالتزن باذىً في قلعة شلسبرج . نعم احذر كل الحذر فان الارض بما رحبت أُضيق من ان تواريك عن النظر

الفصل الخامس

الاميرة كارليتا

وبعد يومين جلست الاميرة كارليتا غالتزن في احدى غرف قصرها السفلي ناكسة الرأس مشتتة الحواس قريحة الاجفان اليفة الاحزان وهي تُعيد النظر مرة بعد اخرى في مستودع اوراقها بلهفة واهتمام لا مزيد عليهما لعلها تظفر بما انقطعت للتفتيش عنهُ . ثم سمعت وقع اقدام في الدار واذا بباب الغرفة انفتح وجون فاين داخلٌ بغير استئذان وبعد ما جلس قال مفتتحاً كلامهُ : —

— كنت انتظر من لطف الاميرة ان ترسل وتدعو عبدها المطيع بعد غيابهِ عنها ثماني واربعين ساعة . فماذا حدث جديدًا وايُّ امرٍ خطيرٍ جرى فشغل الاميرة عني . قال هذا مبالغاً في تنكر ما شاء ومتناهياً في المكر والدهاء . فاجابتهُ مطرقةً معرضة : —

— كنتُ عندما ذهبا فريسة مكيدتك وهما الآن على فراش النزع يجرعان غصص الردى اليوم او غدا

— اليكِ ايتها الاميرة عن المجاز ولا تكلميني بالالغاز

— ليس في كلامي شيءٌ من الغموض والخفاء بل هو غاية في الصراحة والجلاء . اما وانت الجاني على امراةٍ وطفلها جنايةً لا تغتفر لمجرّد حب الانتقام من رجلٍ لم يوقع بك اقل ضرر . وليس لهُ ذنبٌ ولا جريمة سوى اطلاعهِ على دخيلة نفسك الاثيمة

— لا اعلم ما تعنين بهذا فلم ارتكب قط جنايةً ولا سعيت باحد

— اعني انك سعيت في القبض على اخي بواسطة كتابٍ استودعتهِ وانت سرقتهُ من هذا المكان شأن الخائنة الانذال

— يسوءني ولا شك ان يسوءه مصير اخيكِ . على ان من كان ذا علاقة مع الخائنين المؤتمرين على القيصر ليس لهُ ان يتزوج ولا سيما هذا الزواج السرّي

فنهضت الاميرة ودنت منهُ وقالت : —

— من اعلمك اني اتكلم عن امرأة اخي ؟

فادرك خطأهُ واجابها : — لم اعلم ولكن ظننت ومن شدة هياجك استنتجت انّ —

فاعترضتهُ وقالت : — اي جون فاين خلّ عنك الكذب والبهتان لم انتظر منك رفقاً ولا رحمة لاني لستُ اجهل قسوتك وشراستك . ولكني اخجل — نعم اخجل عنك الى حدّ اني اخجل منك فماذا فعلت بالرقيم ايها الوغد . فقال

— اخشى ايها الاميرة ان يتحول بنا هذا المشهد الى ما لا نشتهيه ويتعذّر علينا تلافيه فان كان اخوكِ قد أُخذ بخيانة نفسهِ فذلك يشقُّ عليَّ جداً لانهُ سيعود عليك بنتائج محزنة وان كان خرقهُ ونزقهُ حملاهُ على عقد زواجٍ سري فذلك ايضاً يسوؤني بالنظر الى سوء عاقبتهِ على سريتهِ . وان كانت قد ماتت كما ذكرتِ فذلك خيرٌ لها وابقى من ان تعيش قرينة رجل منفيٍّ في سيبيريا

— يا لك كلباً

— احذري ايها الاميرة فاني لستُ متعوّداً الصبر على مثل هذا الامتهان ولستُ بصافح عمن يتعمدهُ نحوي ولو كان حوايكِ استعتِ ؟ لا اعفو ولا اصفح . وهل تظنين اني رجل حلو المذاق يسهل العبث بهِ على من يريد ؟ او نسيتِ اني قبل الآن برهنت لكِ فساد هذا الظن باجلى بيان ؟ فتذكّري ان نفعت الذكرى واحذري ان تعودي الى مثل هذا التعدي

فاشارت بيدها الى الباب وقالت : —

— اذهب عني يا أشام من البوم ولا تدعني بعد أرى وجهك المشوم ونفسك المطبوعة على الخساسة واللؤم . اذهب والاّ امرتُ خادمي ان يأتي ويخرجك مصفوعاً بيدهِ مرفوساً برجلهِ . او تظنني انا — انا كاريتا غالتزن — ارهب جانبك يا جاسوس البوليس ؟ ساء فألك وخذل شأنك . اسمعتني ؟ انا انا المطالبة بما يصيبك من الامتهان ان لم تغرب عني

— أرى على كلٍّ انهُ لا فائدة من هذه المشاحنة ومن الصواب حسمها الآن ريثما يكن جاشكِ وتصبحين قادرة على الاصغاء الى دفاعي عن نفسي . لاني انكر كل هذه التهم وسوف يبرهن لك المستقبل صدق كلامي ويكون الاختبار اكبر مدافعٍ عني واعظم محامٍ والآن استودعك الله على رجاء ان تكوني في المرة التالية ارقّ جانباً واسهل مراساً ولقد عذرتكِ على ما فرط منكِ لتغير الناس من عذر

قال هذا وخرج يتعثّر باذيال الخزي والخجل ولما خلت الاميرة بنفسها عادت الى ما كانت عليهِ فاخفت وجهها بين يديها ووصلت سلسلة افكارها التي قطعها قدوم جون فاين . ثم نهضت واستعدت للخروج من القصر عازمة على السعي في الاجتماع باخيها كيف كان الامر غير جاهلة صعوبة الموانع التي تحول دون وصولها الى مطلوبها

فقضت ذلك اليوم جائلةً في دوائر الحكومة العليا من عند وزير الى آخر حتى التمست اخيراً فأُجيز لها ان تقابل القيصر نفسهُ وما خيم الليل الاّ كانت مسلحة باوامر عالية تأذن لها في المرور الى قلعة شلسلبرج مصحوبة برئيس البوليس الحربي